

مرجعية الخيال وأثرها في كتابات واسيني الأعرج - كتاب قاب قوسين أو أدنى أنموذجا -
The reference of the imagination and its impact on the writings of
Waciny Laredj -a book of "Qab Qawsayn Aw Adna" as a model-

¹ سلمية حديبي / ² فاطمة الزهراء عطية
Salima hadibi¹ / Fatima zohra attia²

مخبر البحث الشعرية الجزائرية جامعة محمد بوضياف المسيلة
قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي بريك، طريق امدوكال، بريك، 05001،
(الجزائر)

Department of Arabic Language and Literature, Institute of Literature and
Languages University Center of Barika, Route Amdoukal, Barika, 05001(Algeria)

salima.hadibi@cu-barika.dz¹ / fatima.attia@cu-barika.dz²

تاريخ النشر: 2024/12/02	تاريخ القبول: 2024/10/22	تاريخ الإرسال: 2024/09/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

سخر واسيني الأعرج في إبداعاته الأدبية والنقدية الخيال؛ الذي يعدّ وعاءً واسعاً استلهم منه الكثير من التجارب والمداكر واللحظات الشعورية المختلفة، المخزنة في ذاكرته والمتجددة في مخيلته، ثم استدعاها في أعماله الأدبية، ورغبة في تجلي أثر توظيف الخيال في إبداعات واسيني انطلقت الدراسة من إشكالية مفادها: ما أهم المرجعيات الخيالية وما أثرها في كتابات الأعرج من خلال كتاب قاب قوسين أو أدنى؟ ليخلص البحث إلى أن تنوع الخيال عند واسيني يشي بموسوعيته، وقدرته الإبداعية، التي تنقل قراءه إلى عوالمه الساحرة، مما ميّز منجزاته فأضحي نموذجاً في مصاف عالمي.
الكلمات المفتاح: مرجعية، خيال، أثر، واسيني الأعرج، قاب قوسين أو أدنى.

Abstract :

Waciny Laredj harnessed the imagination in his literary and critical works; it is considered as a wide container from which it was inspired many experiences, perceptions and various emotional moments stored in his memory and renewed

^{*} سلمية حديبي: salima.hadibi@cu-barika.dz

in his imagination, and then recalled them in his literary works, In a desire to reveal the effect of employing imagination in Waciny's works, the study started from the following problematic: What are the most important imaginary references and what is their effect on the writings of Laredj through "Qab Qawsayn Aw Adna"? The research concludes that the diversity of imagination when reflects his encyclopedic nature, and his creative ability, which leads his readers to his charming worlds, distinguishing his achievements and became a model of global standing.

Keywords: Reference, imagination, effect, writing, Waciny Laredj, around the corner.



المقدمة:

الأدب الجزائري كغيره من الآداب العالمية حظي بعدة أفلام إبداعية ونقدية، رصدوا مشهد الحياة في بلدهم وظلّوا ملازمين ومخلصين لقضايا الأمة العربية بصفة عامة والوطن الجزائري بصفة خاصة، فبحث هؤلاء الأدباء عن وسائل تعبيرية جمالية وأدوات فنية لإثراء أعمالهم الأدبية ولإيصال أصواتهم للجمهور العالمي. لا جرم في أن واسيني الأعرج أو الرجل القائم - في معنى اسمه - المدرس، الرحالة، الكاتب، القاص، الروائي، الدكتور من أهم الأصوات الإبداعية في العالم العربي والعالمي، عبّر عن حال الأمة وجعل من رواياته سطورا كذاكرة لجيل بأكمله، استطاع أن ينفذ إلى قلوب فئة واسعة من القراء من خلال أعماله التي تتراوح بين منطق فنتازي يكسر قوانين الحياة ليقول الحياة بكل أشكال المعاناة التي يتعرض لها الناس، ويهدم الحدود بين الخيال والواقع.

فتعهد في أعماله توثيق الخيال بمختلف مرجعياته لدرجة أن يصدق القارئ حقيقة ما يقرأ، وقد ارتسم الخيال بشكل جلي في كتابه " قاب قوسين أو أدنى" الذي هو عبارة عن حوارات مع الأعرج في الرواية والكتابة والحياة جمعها وقدمتها سهام شرّاد، وبناءً عليه صيغت الإشكالية في: ما أبرز المرجعيات الخيالية الواسينية من خلال كتاب " قاب قوسين أو أدنى"؟ وما أثرها على أعماله الإبداعية؟ فسعت هاته الدراسة للإجابة عن الإشكالية بهدف تجلي مرجعيات الخيال الواسيني في الحياة والكتابة والرواية، التي منحت لمنجزاته قيمة جمالية جعلته يتفرد في الأسلوب واللغة، وقفزت به نحو العالمية، ولتحقيق

هذا الغرض تم التطرق إلى العناصر الأساسية الآتية : الجهاز المفاهيمي لمرجعية الخيال، ليليه قراءة في مرجعيات الخيال عند واسيني الأعرج وأثرها في إبداعاته من خلال كتاب قوسين أو أدنى.

أولاً- الجهاز المفاهيمي لمرجعية الخيال:

قبل الخوض في غار الخيال عند الروائي واسيني الأعرج كان لابد من التوقف عند مفهوم المرجعية والخيال والفرق بينه وبين الخيال والتخييل؛ توضيحاً للمفاهيم النظرية.

1- مفهوم المرجعية:

أ- لغة: ذكر الرازي في كتابه مختار الصحاح (ت 666هـ- 1267م) في باب الحديث عن رجوع قوله: «رَجَعَ الشيء بنفسه من باب جلس و(رَجَعَهُ) غيره من باب قطع وهذيل، (...) وكل شيء يردد فهو (رَجِيعٌ) لأنَّ معناه مرجوع أي مردود، و(المُرَاجَعَةُ) المعاودة، يقال رَاجَعَهُ الكلام وتَرَاجَعَ الشيء إلى خلف»¹.

أما في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ- 1312م) فإنه ورد في (رجع): «رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعًا وَرُجُوعًا وَرُجْعَى وَرُجْعَانًا وَمَرْجَعًا وَمَرْجَعَةً: انْصَرَفَ، وفي التنزيل: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أي الرُّجُوعُ والمَرْجِعُ، مصدر على فُعْلَى؛ وفيه: إلى الله مَرْجِعُكُمْ جميعاً، أي رُجُوعُكُمْ؛ حكاه سيبويه فيما جاء من المصادر التي من فَعَلَ يَفْعُلُ على مَفْعَلٍ، بالكسر»².

فمن خلال التعريف اللغوي فإن المرجعية هي الرجوع والعودة إلى خلفية المواضيع، وردّها إلى أصولها والاستناد إليها في بناء التفسيرات.

ب- اصطلاحاً: المرجعية هي الخلفية المعرفية لكل كاتب التي استند إليها أثناء الكتابة، حيث تكون ضمنية ذهنية ولكنها بشكل أو بآخر يظهر أثرها في إنجازاته، ويستنبطها المتلقي من خلال تتبعه لها، واصطلاح عليها بالمرجعية الأدبية وهي «صدى هذه التقاليد والثقافات والطرائق، وهي مثل الموروث تتدخل في تشكيل الذائقة الأدبية، بل تحافظ على استمرار نمط معين من الأفكار والنصوص والصور والأحاسيس»³، فهاته المرجعية في الكتابة لا تنطلق من فراغ وإنما تستند إلى مرجعيات نفسية وتاريخية واجتماعية وإيديولوجية وغيرها.

2- مفهوم الخيال:

أ- لغة: جمع محمد أركون معاني الخيال التي جاءت في لسان العرب في الآتي⁴:

- معنى الظن: خَالَ الشيء يَخَالُ خَيْالًا وَخَيْلَةً وَخَالًا وَخَيْلًا وَخَيْلَانًا وَمَخَالَةً وَمَخَيْلَةً وَخَيْلُولَةً، في المثل من يسمع يَخُلُ أن يظن.

- معنى التهمة: وَخِيلَ عليه تَخْيَلًا، وَجّه التهمة إليه.

- معنى الخلق: وكل شيء كان خليقاً، فهو مُخَيَّلٌ، يقال: إن فلانا مُخَيَّلٌ للخير.

معنى الخادع أو الموهوم: وقيل: الخال السحاب الذي إذا رأيته حسبته مطرا ولا مطر فيه فالجذر اللغوي للمخيل جمع بين عدة معاني كالظن والالتهام والخليقة والإيهام، وكلها عبارة عن تصورات ذهنية في باطن عقل الإنسان.

ب- اصطلاحا: الخيال مصطلح متشعب لأنه عابر للعلوم والاختصاصات، فهو كل التمثيلات التي تقع خارج الواقع الحسي، أي؛ إنتاج ذهني يتمثل في مجموعة واسعة من الصور والرموز والشفيريات والحكايات والقصص والقيم والتصورات الذهنية المعقدة القابلة للاستدعاء في أي لحظة من عالم داخلي عقلي للكاتب لترجم إلى سياقات خارجية، وقد يلتبس مفهوم الخيال مع مفاهيم أخرى كالتمثيل والخيال وفي الآتي توضيح للفرق بينهم.

3- مفهوم التخيل:

أ- لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ - 1312م) «تخيل الشيء له: أي تشبّهه وتخيّل له أنه كذا: أي تشبّهه وتخيّل، ويقال: تخيلته فتخيّل لي، كما تقول: تصوّرته فتصوّر، وتبينته فتبين، وتحققته فتحقّق»⁵. وجاء في المعجم الوسيط: «خِيلَ إليه كذا: لُبِسَ وَشُبّهَ وَوَجّهَ إليه الوهم، (...) تخيّلَ له الشيء: تشبّهه -و- الأرض: بلغ نبتّها أن يزعى وخرّج زهرها، -و- فلان تكبر وأعجب بنفسه و- القوم تفاخروا (...) و- الشيء له: تشبّهه وتصوّر، ويقال تخيّل لي خياله»⁶.

فالتخيل في معناه اللغوي ورد بمعنى الوهم والطيف واستحضار ما اشتبهه من صور في مخيلة الإنسان.

ب- اصطلاحا: التخيل هو إيهام العقل وخداعه، فالمبدع يمكن أن يصور موضوعا ما دون مطابقته للواقع، فيعتمد إلى تزيين القبيح أو تقييح الجميل، ويعرفه حازم القرطاجني «التخيل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر الخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو مجموعة من الصور ينقل لتخليها أو تصورها، أو تصور شيء آخر لها، انفعالا من غير رؤية إلى جهة من الانبساط والانتقاض»⁷، فالتخيل هو إعادة تشكيل مجموعة من الصور الحسية حسب رؤية المبدع، حيث يصور مشهدا خياليا من نسج خياله.

4- مفهوم الخيال:

أ- لغة: جاء في معجم البلاغة للزمخشري (ت 538هـ - 1143م): «خيل: فيه خيلاء ومُخيلة. وهو يمشي الخيلاء وإياك والمخيلة وأسبال الأزار. واحتال في مشيته وتخيّل (...) وتخيّل في الشيء تلون»⁸.

كما ورد في قاموس المحيط للفيروز آبادي (ت 817هـ - 1415م) في مادة (خ، ي، ل) «خال الشيء يخال خيلاً وخبلة، ويكسران، وخالاً وخبلاً، محرّكة، ومخيلة ومخالّة وخبولة، طئه، وتقول في مُستقبله: إخال، بكسر الهمزة وتفتح في لغية، وخيّل عليه تخيلاً وتخيلاً: وجّه التهمة إليه، -و- فيه الخير: تفرسه كتحية»⁹.

فالخيال لغويا يعني الظن والالتهام، وهو الاستناد إلى الشك دون تبين الحقيقة

ب- اصطلاحاً: الخيال هو الخروج عن الواقع إلى اللامألوف والغريبة من خلال توفير صورة مليئة بالجاز، فهو «تلمس العلاقات الكثيرة القائمة بين الأشياء، فيختار ويجمع ويشكل ويصوغ ويربط كل ذلك بخياله وحسه فيصنع من الأشياء العادية ومن المعاني المجردة شيئاً جديداً مستقل عن عناصره التي يتكون منها، فيبعث فيها أحاسيس تختلف كل الاختلاف عن وقع هذه الأشياء على نفوسنا في الواقع»¹⁰. إذن؛ فالخيال مفهوم أوسع من التخيل والخيال، حيث جمع معنى الوهم والطيف وبين الظن والالتهام بالإضافة إلى معاني أخرى حددها ابن منظور في معجم لسان العرب في مادة (خ، ي، ل).

5 - مفهوم مرجعية الخيال:

هي القاعدة المعرفية لجملة من الصور الذهنية أي؛ المدلولات والتي مثلها الكاتب من خلال صياغته لعدد من الدوال اللغوية، ليترجم جملة من التصورات يُوقَف عليها من خلال استقراء العمل الإبداعي الذي يمثل صورة متكاملة لخيال الأديب.

ختاماً فإن العمل الإبداعي يحمل في طياته دالاً (النص) ومدلولاً (مجموع المعاني والتصورات الذهنية)، ولا ينطلق إلا وقد مرّ بمرجعيات الكاتب المتنوعة تنوع مجالات الحياة، فيتشكل من كل هذا مخيالا واسعاً ضمنياً وصريحاً، يضيف الجمالية على النصوص، فهل أعمال واسيني تتضمن مرجعيات تخيلية؟ وما أثرها على منجزاته الإبداعية؟

ثانياً- قراءة في مرجعيات الخيال عند واسيني الأعرج وأثرها في إبداعاته من خلال كتاب "قاب قوسين أو أدنى":

تتميز كتابات واسيني الروائية والنقدية بالسعة المعرفية، وبأنها لا تستقر على شكل معين وإنما تجدها تبحث دائماً عن طرقها التعبيرية الجديدة والحية والفريدة، فهو يعمل على اللغة قبل الفكرة، وهذا عائد لمرجعية الخيال الإبداعي لديه والذي غداه بالجاز وشاعرية اللغة.

1- بطاقة فنية عن واسيني الأعرج وكتابه قاب قوسين أو أدنى:

أ- واسيني الأعرج:

ولد الأديب واسيني بقرية سيدي بوجنان بتلمسان الجزائرية، في 8 أوت 1954م، حصل على الليسانس من كلية الآداب واللغات من جامعة وهران، ونال الماجستير والدكتوراه من جامعة دمشق، شغل منصب أستاذ كرسي بجامعة الجزائر المركزية لسنوات عدة، وعيّن في منصب أستاذ بجامعة السوربون منذ عام 1994م، يعدّ أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي، أشرف على تسيير اتحاد الكتاب الجزائريين من سنة 1990م إلى سنة 1994م، كما تم اختياره في عام 2005م كواحد من ضمن ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، ومن أعماله الروائية التي تتجاوز ثلاثين

منجزا: نوار اللوز، سيرة المنتهى، الأمير وغيرها، و من كتبه النقدية كتاب " قاب قوسين أو أدنى"، كما تحصل على عديد الجوائز عن أعماله الإبداعية والنقدية.

ب- لمحة عن كتاب قاب قوسين أو أدنى لواسيني الأعرج:

كتاب "قاب قوسين أو أدنى" صدر عن دار منشورات بغداد دي ودار الفضاء الحر بالجزائر سنة 2014م، وهو عبارة عن سبعة وثلاثين حوارا متفرقا لواسيني الأعرج خلال الفترة الممتدة من سنة 2004م إلى غاية 2014م، جمعتها وقدمتها سهام شرّاد عبر مختلف المجلات الورقية والإلكترونية والجرائد من مختلف الدول (الجزائر، المغرب، تونس، الشارقة بالإمارات، واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية وغيرها) ضمن 416 صفحة.

يتضمن هذا المنجز حوارات تتكلم عن الكتابة والحياة والرواية عند واسيني، حيث استهله بتصدير آيات من سورة النجم (1-17) التي استلهم منها عنوان الكتاب، ثم قدم افتتاحية لمنجزه يبين فيها سبب منفاه من أرض الواقع وعشقه لوطنه الحقيقي (الكتابة) بعنوان: "هذا أنا، كما أنا، في وطن اسمه الكتابة" ثم يطرح مقدمة سهام شرّاد التي كان عنوانها "هذا الكتاب هربا من مدافن الأنترنت والفيسبوك" حيث تعلل الهدف من جمع حوارات واسيني كي لا تبقى شظايا متفرقة داخل العالم الافتراضي، فقامت بجمعها ورّقًا ليسهل تلقيها عند عشاق القراءة خاصة المهتمين بواسيني حتى يصبح هذا المنجز أرشيفا لهم، ثم تبرر لماذا بدأت الجمع والأرشفة من تاريخ 2004م إلى 2014م، بعدها مباشرة ينطلق واسيني في البث الكتابي لهاته الحوارات التي جمعتها سهام شرّاد والتي وسّمها بـ حوارات مختارة من سنة 2004م إلى سنة 2014م من كتاب الأمير إلى سيرة المنتهى.

2- مرجعيات الخيال وأثرها في منجزات واسيني :

أ- مرجعية الخيال الثقافي وأثرها :

واسيني الطفل تربى على عوالم حكايات جدته التي هيأت الخيال لديه، فقد كانت المحاكاة الأولى له حيث استلهم منها فنية السرد الشائق والممتع، واستمد مخياله الثقافي من ثقافتها الكلاسيكية التراثية، كما أسهم في ذلك كل أفراد العائلة وقد صرح به في قوله: «لكن في السيرة لا يوجد جدي السلالي فقط، ولكن يوجد أيضا جدي الإبداعي ومعلمي، الذي تعلمت منه الكثير سرفانتس وتوجد حتا وأمي ومينا امرأتي الأولى في إشكالي، ولكل واحد حضوره في علاقته بي وتكويني، كل منهم ترك ملمسه وسحره على جسدي و في تكويني العقلي والروحي»¹¹.

كما شكلت رواية "ألف ليلة وليلة" لابن المقفع التي تعلق بها في صغره مرجعيته الكتابية الروائية التي أسرته بأسلوبها وحكاياتها المشوقة، فتركت فيه الأثر البالغ الذي ظهر لاحقا في رواياته؛ حيث انتقل من

الانتظام والاستجابة للشرطية المجتمعية التي فرضها مجتمعه آنذاك إلى سؤال الفوضى وجنون المتخيل من خلال هروبه إلى وطنه الافتراضي "الكتابة".

كذا رواية "دون كيشوت" لميغال دي ثيربانتس، التي شب عليها لتكون فيما بعد تناسا في المبدأ والفكرة والشخص حتى النهايات والأهداف بين دون كيشوت وواسيني في بعض أعماله كرواية حارسه الظلال، والبيت الأندلسي.

أما الارتحال عبر الأمكنة فقد شكل أفقا تخياليا ودورا كبيرا في ثقافته، حتى أنه لا يستطيع الكتابة إلا إذا ارتحل إلى الفضاء والمكان الذي دارت فيه الأحداث، مثل ما فعل في رواية "الأمير" ورواية تناول فيها حياة الأدبية مي زيادة "ليالي إزيس كويا"؛ حيث إن زيارة أمكنة تواجههم قبل موتهم هندست مرجعية تخيلية إبداعية لديه؛ لأنه أثناء تواجده هناك يتصور الأحداث وينقلها بطريقة فنية وجالية متناهية في دقة الوصف وبراعة السرد.

إن المنتبج لأعمال واسيني الأدبية يلاحظ اهتمامه بالسلام وصور الإنسانية التي تشكل ثقافة فردية وجمعية للأمم، ومرجعياته الخيالية في ذلك - حسب - هي الرغبة في الإجابة عن سؤال الحاضر: كيف بنى علاقات إنسانية؟ وقد وجد الإجابة في معاملة الأمير عبد القادر الجزائري الذي أعطى صورة حسنة عن التعايش السلمي بين الشعوب في إنسانيته مع القس الفرنسي المستوطن في الجزائر (مونسينيور أنطوان ديوش).

تأثر واسيني بإسراء الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعراج ابن عربي وسيرة كتاب عالمين أمثال اليوناني نيكوس كازنتزاكي والكولومبي غابرييل ماركيز، فهاته القصص بلورت تقاطعا تخياليا في روايته "سيرة المنتهى عشتها كما اشتيتني"، والذي أضاف الكثير من الإبداعية والفنية على هذا المنجز السيري، أما رواية "العربي الأخير 2084" فرجعية واسيني الخيالية فيها ثقافية نهله من رواية جورج أوريل في رواية "1984"، كما اهتم بأفلمة الروايات سينمائيا نظرا لثقافته الفرنكفونية ووعيه بأهميتها الاستراتيجية ونظرته الثاقبة والاستشرافية لدور السينما في التحكم بالعالم.

كما يعدّ واسيني الأعرج من الكتاب الموسوعيين الذين تلمس في كتاباتهم مرجعية تكاملية بين اللغة العربية وبين العلوم الأخرى، وهذا ما نلمسه في قوله: «ما معنى المنفى بالنسبة لفنان منفا الأول هو عتاده ولغته التي يكتب بها، كما يقول رولان بارث»¹²، وأيضا «دخلت في خيارات مضادة لتعريفات فيليب لوجون للسيرة الذاتية... ووجدتني أقرب من تعريفات سيرجي دوبروفسكي الذي منحني فرصة التخيل الذاتي»¹³، فهذا التضمن في أعماله يشي بالخيال الثقافي الواسيني.

لا غرو في أن غرام الكاتب باللغة العربية وعشقه لها هو الذي شكّل عنده اللغة الشعرية الراقية، وحسن السرد والسبك في إنتاجاته الإبداعية لقوله «فأنا لم أرث اللغة العربية بشكل طبيعي ولكني ذهبت نحوها باختيار العاشق»¹⁴ ولأن السمة المميزة للنص "الاستمرارية الدلالية" وظف اللغة الشعرية ليعيش نصه أكثر. كما أسهمت مرجعية التنوع اللغوي لواسيني في بعض أعماله الروائية والنقدية مثل "سيدة المقام، حارسة الظلال، مرايا الضمير، مضيق المعطوبين" المكتوبة باللغة الفرنسية في تحقيق مقروئية رواياته واتساعها على نطاق عالمي.

لا مرأ في أنّ العمل الأكاديمي الجامعي كأستاذ ساهم في تكوين مرجعية مخيالية ثقافية لواسيني وقد أثرت بالشيء البسيط على أعماله الإبداعية، وقد ظهر ذلك في قوله: «طبعاً النشاط الأكاديمي مفيد ومساعد إلى درجة عليا في إغناء العقل باستمرار بالمنجز المعرفي الإنساني وهذا يفتح الرواية على آفاق أوسع»¹⁵.

ب- مرجعية الخيال التاريخي وأثرها:

إن الكتابة الروائية التاريخية عند واسيني مرجعيتها كسر قدسية التاريخ من خلال قراءة وجهة النظر في التاريخ الرسمي والوجهة المناقضة لها؛ لدحض أحادية سرد التاريخ والاتجاه نحو الانساع وهذا ما قدمه في رواية الأمير التي تجيب عن الكثير من التساؤلات حول حياة الأمير عبد القادر الجزائري.

فالكاتب في الرواية التاريخية في علاقته مع التاريخ لا ينظر إليه كمادة منجزة وإنما هي مادة ناقصة في جزئية ما، فيكمل النقص من التاريخ فيدخل مادة الخيال عليه وهو الأمر الذي يدفع بالقراء إلى الإقبال على الرواية التاريخية، وفي هذا الصدد يقول: «إذ نملك كروائين إعادة قراءة التاريخ قبل أن نأخذ كمادة منجزة لنخرج برؤية خاصة لا تملك جديتها وقوتها وموضوعيتها إلا إذا وضعت الحقائق التاريخية في مواجهة بعضها البعض في صياغات مختلفة تمكن الكاتب من الاستقرار على الصيغة الأكثر منطقية وإقناعاً حتى ولو أدى ذلك إلى الاصطدام مع الحقيقة التاريخية الرسمية»¹⁶ وهذا ما قدمه واسيني في رواية رماد الشرق من مرجعيات مخيالية للتاريخ الجزائري والعربي.

فيؤكد واسيني على الخيال في الرواية التاريخية ولا ستكون عبارة عن سرد للتاريخ ولبست رواية، بقوله: «عندما نختار كتابة الرواية التاريخية علينا أن نتعامل بكثير من الحيلة والذكاء مع سلطة أخرى قاهرة أحيانا وضاعطة بعنف، هي سلطة التاريخ، تخرق بترساتها من اليقينيّات جنساً فنياً حرّاً اسمه الرواية، يحتاج الأمر بكل تأكيد إلى مراسٍ حقيقي وربما إلى خبرة في القراءة والتوليف أيضاً لأن لعبة الرواية التاريخية لا تتوقف عند حدود التاريخ لكنها تذهب إلى أبعد من ذلك، أي استثمار المادة التاريخية في نص روائي يجب أن تتوفر فيه خصائص الحكيم وقوة الخيال»¹⁷

إنّ واسيني استطاع بقوة خياله ورؤياه العميقة أن يخلق مسافة جديدة كجسر لإثراء الماضي والانفتاح على الحاضر وتجديد للمستقبل، ليستشف الفنتازيا فيما يعتنق الواقع.

ج- مرجعية الخيال السياسي وأثرها:

واسيني الأعرج جسد في معظم رواياته الواقع السياسي للدول العربية خاصة الجزائر، فاستمد مرجعيات خياله السياسي من حقيقة مزرية يعيشها العالم العربي في ظل الحروب الأهلية والدكتاتوريات المنتشرة، وقد استشرّف مصير الأمة في قوله: «كنت أرى حقيقة عالما خرائيا يرسم في الأفق، كنت أرى وأشم الحرائق التي تشتعل هنا وهنا وكنت أرى ظلم الدكتاتوريات المستشري والملكيات القاتلة وأنا مقدمين على خراب كلي»¹⁸، وقد طرح هذا الفكر في رواية "ملكية آرايا" التي كشفت عن خيال واسع عبّر عنه بموقفه تجاه الوضع السائد في العالم العربي.

واسيني من الكتاب الذين يبحثون دائما في رواياتهم عن الحلول المثلى للخروج بالوطن العربي من وضعيته الآيلة للزوال، ما ولد لديه خيالا براغماتيا وتفكيريا يعود بالنفع على الدول العربية والذي لا يتم إلا باتفاقها مع بعض رغم العداوة الممنهجة من العدو «الجزائر والمغرب عليهما أن يكونا قاطرة المنطقة (...)»، لماذا لا يفكران تفكيراً براغماتياً؟¹⁹، وكذا الإيمان بالديمقراطية التي تؤسس للدول وتدفعها نحو التطور والتقدم والتغيير.

ففي رواية "العربي الأخير 2084" و"ملكة الفراشة" و"أصابع لوليتا" عالج واسيني مآل الأمة العربية وواقعها ومنظوره المستقبلي لها، فقد استمد خيالهم من الأحداث السياسية التي تجري في الوطن العربي من طائفية واختلالات ثقافية وما يترتب على ذلك خلال الألفية القادمة والتنبؤ بسقوطها في حال عدم الاتحاد ونقص أساليب الدفاع كالأسلحة، حتى أنه بثّ فيها خياله الذي عبر به عن الوضع الذي آلت إليه (فرنسا فولتير روسو) إلى (فرنسا ساركوزي) العنصرية واليمين المتطرف في رؤية إبداعية واسينية.

أما بالنسبة للحركات العدمية (داعش، الإرهاب، الجماعات المتطرفة وغيرها) شكلت رؤية كناية عند واسيني الذي طالما ندد بخطورتها على الأمة العربية «فدول المغرب الجزائر والمغرب وتونس مهددة بحركات عدمية إذ كيف يمكن أن أحمي بلدي في استقلال تام عن الآخرين، بإمكانني أن أخلق دائرة جماعية»²⁰، وقد كانت له تجربة شخصية في فترة العشرية السوداء أين كان ضمن قائمة المطلوبين للقتل، لأنه من الأقلام الجزائرية المفكرة.

بناءً عليه اعتمد واسيني الأعرج في أعماله الأدبية الخيال لإخراج المتلقي من حالته الشعورية العادية وإدخاله عمق رؤياه الفنية وتجربته الإبداعية لبحث معه عن حلول سياسية تمهد لمستقبل عربي مشرق.

د- مرجعية الخيال الديني وأثرها:

يُمنَّ عنوان الكتاب " قاب قوسين أو أدنى " على المرجعية الدينية لواسيني فهي الآية التاسعة من سورة النجم، فهو عربي مسلم حريص على ديانتته، بل ويجادل تضمينها دائما في أعماله الإبداعية والنقدية. كما ظهرت مرجعية واسيني لخياله الديني في توظيفه التناص الديني مع القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكذا قصص الأنبياء والرسول ومثال ذلك: «وَوَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ مَدِينَةِ الْوَاوِيَةِ»²¹، مع الآية القرآنية في قول الله تعالى: ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة الآية 144].

قد تقصى واسيني مخياله في رواية "سيرة المنتهى" من سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- خلال رحلتي الإسراء والمعراج، وأسأها كذلك مقارنة للمكان الذي وصل إليه محمد- صلى الله عليه وسلم- سدره المنتهى إبان الرحلة.

كما حاول أن يحمي الدين من الحركات الإسلامية التي تستغله للوصول إلى مصالحهم السياسية فيقول: «لابد من أن تخرج الدولة الدين من السياسة وتحدد مساحته بشكل واضح في الدستور، وأيضا يجب إخراج التشريع الديني من القضاء لضمان التعددية الدينية الموجودة في بعض البلدان العربية»²²، وهذا الخيال استمدته من أحداث العشرية السوداء في الجزائر؛ حيث إن الجماعات الإرهابية استغلت الدين لقضاء مصالحها الخاصة، بغية تشويه الإسلام.

فقد زاحج مخياله الديني باللغة الشعرية، ما دفع بالمتلقي إلى متعة التأمل في إبداعاته، وتذوق اللحظة الشعرية المنبثقة عنها.

هـ- مرجعية الخيال الاجتماعي وأثرها:

بما أنَّ الأديب ابن بيئته فإن الميراث الأندلسي الموريسكي والإسباني كان له دور في كتابات واسيني خاصة في رواية "سيرة المنتهى" عشتها كما اشتتهني " فواسيني ترجم هذا الموروث في كتاباته حيث لمس جوانب الحياة العامة للناس وهو سبب نجاح أعماله.

رغم أن القرية التي عاش فيها الأعرج شكلت البنية الأساسية الأولى للكتابة عنده، إلا أنه أحب المدينة لاتساعها وتنوعها، ورأى أنَّ نظامها معقد يوازي تعقيد الكتابة، ووصفها بأنها لحظة الحرية في عالم يواجه صراع يومي يشبه الصراع الموجود في الرواية، فهو يعتقد بأن نظام الرواية هو نظام مديني معقد وليس قروي بسيط؛ لهذا نجده يستمد منه مخياله، الذي قد تجسد في العديد من الروايات: كـ "سيدة المقام"، و "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"، و "ضمير الغائب" وغيرها²³.

كما لم يتخل واسيني على الوطن العربي وحرص على العمل على تنميته انطلاقا من حبه له لأنه «أمتك وثقافتك ولغتك التي تبنيها أو تبنتك»²⁴، ولا يمكن للكاتب أن يكون عالميا إذا لم يضيف لمسة الخصوصية والمحلية على الثقافات الإنسانية.

لا غرو في أن حضور المرأة في روايات واسيني كبير منذ تعلقه بشهرزاد في رواية "ألف ليلة وليلة"؛ وهو راجع إلى الحرب الذكورية بمعانيها الاستيعابية ضد المرأة، فحقق لها الأعرج حريتها من خلال مخياله في أعماله النقدية والروائية، وهاته المساندة لم تأت من عدم بل جاءت من مرجعية اجتماعية عاشها واسيني منذ طفولته حيث أدرك ضعف المرأة أمام سلطة ذكورية تسلبها حقها في الكثير من الأمور.

أما دياسبورا واسيني ومنفاه «حول الكتابة» تقريبا إلى حرفة وأعطاهها توضعها الإنساني ونزعها التي لا تتوقف على حافة الجزائر أو الوطن العربي»²⁵، فالمنفى من الوطن إلى بلاد الغربة هو الذي فتح شهية واسيني الإبداعية ودفعه إلى منفى افتراضي أعده وطنه الحقيقي ألا وهو الكتابة، التي يعدها عالما يزرع فيه الخيال بكل حرية.

و- مرجعية الخيال الأسطوري وأثرها:

قصص الجدة هي المرجعية الأولى للأسطورة عند واسيني؛ ذلك لأن «الكثير مما روته له طابع أسطوري لكن أيضا الكثير له موقع قدم في الحقيقة ويمكن اختياره تاريخيا»²⁶، فهاته الحكايات شكلت أفقا إبداعيا عنده؛ لأنها نقلته إلى عالم التخيل بأسلوبها التشويقي.

فاختار واسيني الرحلة المعراجية وهي طريقة فنية أكثر منها شيء مقصود لذاته، ليتمكن عمليا من اللقاء مع هؤلاء الذين جعلوا منه ما هو عليه اليوم، ونظرا لأن جميع شخوص رواية "سيرة المنتهى عشتها كما اشتيتني" أموات هذا الأمر جعل منه يعيش بين الحياة والموت من خلال رحلته المعراجية مع الأموات.

كما يبدو أن شخصية دون كيشوت الأسطورية وصراعها مع الآلهة والأشجار الواهمة شكلت أفقا تخياليا للأعرج؛ حيث في كل رواياته يحاول خوض حروب يجابه فيها الكذب بالحقيقة في مجتمعات خرافية لا يحكمها العقل فيقول: «أنا مثل دون كيشوت وأومن بأطروحاته العظيمة»²⁷.

هذا و أضافت المرجعية الخيالية الأسطورية عند واسيني حياة إنسانية على الجمادات وذلك بتشخيصها وتجسيدها بشكل ميتافيزيقي؛ على نحو وطنه الحقيقي الذي أساءه بالكتابة.

ز- مرجعية الخيال الواقعي وأثرها:

مرجعية الخيال في "جملكية آرايا" الرواية التي استشرفت وقوع أحداثها بزمان مستمدة من واقع مرير ارتسم من أوضاع البلاد العربية، أما رواية "البيت الأندلسي" تعود مرجعيتها الخيالية رمزيا إلى البيت العربي الذي يتم اليوم محوه تماما.

أما بالنسبة لرواية "العربي الأخير 2084" فمرجعية الخيال فيها تعود إلى رحلات الكاتب الأخيرة في الأمصار العربية، ورؤية المصائر القاسية للوطن العربي والخوف من الآتي الذي يرسم في عيون الناس (الدمار، الحروب، الدكتاتوريات، الحروب الأهلية وغيرها)، فهي في نظره حروب مؤجلة لكنها ستقع. إن واسيني الأعرج لا يكتب رواياته إلا إذا أرجع مخيال الأحداث بالوقوف مباشرة على واقعها الحقيقي ليستلهم مرجعيتها الواقعية وهذا ما نلمسه في رواية "الأمير" و"ليالي إزييس كويا... ثلاثئة ليلة وليلة في حجم العصفورية".

أما مريم الاسم المكرر في أغلب روايات الأعرج مرجعيتها الخيالية مستقاة من حب الطفولة والمراهقة لفنائه في قريته تسمى مريم، هذا الحب الذي يعيد له حميمته وهشاشته ودفي المنافي (الكتابة) الذي يعيد له طفولته، حيث يرى أن «مريم ليست مجرد امرأة، أو حتى طفلة معشوقة، لكنها أيقونة للكتابة تتلون في كل نص متخذة شكلا ووجها مختلفين»²⁸.

لا جرم في أن اللحظات التراجيدية التي بين دونتون وروبيس بير في "أصابع لوليتا" شكلت مرجعا لمرجعية واقعية في مخيال إبداعه «لتصبح ضمن مجال الرواية وتغادر نسبيا مسار التاريخ ولا تبقى منها إلا علامتها الأساسية كاسم الرئيس أو العقيد وبعض اللحظات التراجيدية التي بنيت عليها الرواية جزء من منجزها التخيلي»²⁹ حيث تمثل الشخصية الأولى في الواقع الرئيس أحمد بن بلة والثانية الرئيس هواري بومدين. فالخيال أتاح للأديب واسيني التعبير بفتية، وأبرز مدى براعته وقدرته على إيصال المعاني والأفكار إلى المتلقي بأسلوب مشوق وماتع يعبر عن واقع متناقض بين الإيهام والوضوح.

ح- مرجعية الخيال الثوري وأثرها:

جل كتابات واسيني الروائية والنقدية هي ثورة على الاندثار، حيث حمل نفسه مسؤولية الحفاظ على دم الشهداء من خلال الكتابة عنهم وعن تضحياتهم في سبيل البلد وأبنائه، لا ليعيد الأحقاد ولكن كي يستعصوا مما حدث، فيقول: «أشعر أحيانا أنني حامل في أعماقي لأصوات الكتاب والفنانين والمغتالين منذ الاستقلال إلى اليوم»³⁰.

حيث لم تغفل الروايات الواسينية (الأمير، رماد الشرق، أصابع لوليتا، مملكة الفراشة) عن تصوير الثورات المغاربية ضد النظام الدكتاتوري؛ حيث انطلق فيها من مرجعية واقعية حيث قال في هذا الإطار: «زرت تونس في عز المخاض القاسي وساندت الحركة الديمقراطية»³¹.

الروائي واسيني في معظم أعماله الإبداعية يميل إلى السلم والتسامح وينبذ الثورات والحروب التي تخلف عكس ذلك؛ لأنها ترسخ صورة مأساوية عند الإنسان وتغير فيه الكثير ولا يستطيع حتى تجاوزها، كصورة الوالد الثوري التي تنتاب الكاتب في رواياته «صورة ليلة القبض على والدي إبان الثورة الوطنية عندما اقتادوه

نحو السيارة وهم يهددون بإطلاق النار. اللحظة التي تشعر فيها بالعجز الكلي وأنت غير قادر على فعل أي شيء تلك اللحظة تحمل رائحة غريبة إلى اليوم استرجعها ولكني لا أستطيع أن أصفها أبدا»³².
كما استطاع الأعرج بفضل مرجعيته الثورية الثورة على اللغة الجامدة الرياضية للرواية والاستعانة باللغة الشعرية لتعطي المنجز ديمومة واستمرارية، وقد وصل إلى هاته النقطة بفضل مخياله الواسع في عدم تقبل لغة واحدة وهي اللغة الفرنسية وزحف نحو اللغة العربية عاشقا لها، كما أنه ثار ضد الكتابة وفق قيود معينة إلى العبور عبر مسلك الحرية في التعبير والإبداع فهو «كائن ولج حرا ويشتهي أن يموت في فراش الحرية»³³.
فتجاوز وثار واسيني بمخياله على كل ما هو نمطي ومعطى جاهز إلى كل ما هو متفرد وجديد مثل مخياله في الرواية السيرية (سيرة المنتهى).

إن خلاصة القول أن هذا التنوع في الخيال ومرجعياته يظهر تكاملا معرفيا عند واسيني في الكتابة والرواية والحياة، وقدرته المذهلة على الإبداع، مما خلق له قاعدة جماهيرية وفية لأدبه، وعليه فالمرجعية الأولى والأخيرة لواسيني أثناء الكتابة هي: قراءه الأوفياء الذين ينتظرون بفارغ الصبر أعماله الإبداعية والنقدية؛ لهذا نجد واسيني دائما يضع نصب عينيه هاته الفئة ويعود بمخياله إليها لأنها تشكل حياة النص.

الخاتمة:

الكتابة في نظر واسيني هي نفس إلهي محرمة ومقدسة حتى في أكثر صورها جرأة وتماديا، وهي الوطن الحقيقي للأديب؛ هذا الوطن الذي غرس فيه الأعرج كل مرجعياته ليشكل من خلاله مخيالا يصل بالمتلقي إلى الولوج إلى عوالم الكاتب الإبداعية.

وكحوصلة لهاته الدراسة فإنه تم التوصل إلى جملة من النتائج لعل أهمها ما يأتي ذكره:

- المنجز الإبداعي أو النقدي يتكون من دالٍ ومدلولٍ ولا ينطلق إلا وقد مرّ بمرجعيات الكاتب المختلفة، فيتشكل من كل هذا مخيالا واسعا يضيفي تيمة جمالية على النصوص.
- واسيني الأعرج من الأدباء الذين خلدوا بصمتهم الإبداعية بإضافة أعمال متنوعة وبمختلف اللغات للمكتبة الجزائرية والعربية والعالمية.
- كتاب "قاب قوسين أو أدنى" أبان عن مرجعيات واسيني في الكتابة والرواية والحياة وأثرها على منجزاته.
- تنوع الخيال عند واسيني بين (الثقافي، التاريخي، السياسي، الديني، الاجتماعي، الأسطوري، الواقعي، الثوري) يشي بموسوعية واسيني، وقدرته المذهلة على الإبداع، والتي تنقل قراءه إلى عوالمه الساحرة.
- أعمال الأعرج بحثت عن سبلها التعبيرية الجديدة بالعمل الجاد على اللغة العربية الشعرية مما خلق له قاعد جماهيرية وفية لأدبه.

هوامش:

- ¹ زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، 1986م، مختار الصحاح، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح، ص 99.
- ² أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، بيروت، لبنان، دار صادر، بيروت، لبنان، دار صادر، المجلد الثامن، ص 114.
- ³ رزاق محمود الحكيم، (2003م)، المرجعية الأدبية وتحليلات القراءة في النص الشعري، مجلة العلوم والآداب الإنسانية، جامعة العلوم الإسلامية الأمير عبد القادر قسنطينة، الجزائر، المجلد 02، العدد 01 ص 117.
- ⁴ ينظر، محمد الشببة، 2014م، مفهوم الخيال عند محمد أركون، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الضفاف، ص 13، 14.
- ⁵ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الحادي عشر، ص 230.
- ⁶ مجمع اللغة العربية، 2004م، المعجم الوسيط، ط4، القاهرة، مصر، مكتبة الشرق الدولية، ص 266.
- ⁷ عثمان موافي، 1983م، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، ط2، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، الجزء 01، ص 111.
- ⁸ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، 1998م، معجم أساس البلاغة، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الجزء 01، ص 266.
- ⁹ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، 2008م، القاموس المحيط، القاهرة، مصر، دار الحديث، ص 517.
- ¹⁰ فاطمة سعيد أحمد حمدان، 1979م، مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة، أطروحة الدكتوراه في النقد والبلاغة، السعودية، جامعة أم القرى، ص 339.
- ¹¹ واسيني الأعرج، 2014م، قاب قوسين أو أدنى، جمع وتقديم سهام شراد، ط1، العاصمة، الجزائر، دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، ص 25.
- ¹² المصدر نفسه، ص 6، 7.
- ¹³ المصدر نفسه، ص 25.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص 35.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 35.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 63.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 267.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 28.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 44.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 44.
- ²¹ المصدر نفسه، ص 5.
- ²² المصدر نفسه، ص 54.

²³ ينظر، قناة الجزيرة، 01، 06، 2015م، وحي القلم - واسيني الأعرج..المرتحل عبر الأمكنة، تاريخ التصفح: 01، 09، 2024م، على الساعة: 10.00 صباحا، على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=uJqAKf1RYP0&t=642s>

²⁴ واسيني الأعرج، 2004م، قاب قوسين أو أدنى، مصدر سابق، ص36.

²⁵ المصدر نفسه، ص 105.

²⁶ المصدر نفسه، ص 24، 25.

²⁷ المصدر نفسه، ص 77.

²⁸ المصدر نفسه، ص 105.

²⁹ المصدر نفسه، ص 115.

³⁰ المصدر نفسه، ص 116.

³¹ المصدر نفسه، ص 72.

³² المصدر نفسه، ص 81.

³³ المصدر نفسه، ص 79.

قائمة المراجع:

*القرآن الكريم برواية ورش.

1- زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، 1986م، مختار الصحاح، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح.

2- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، بيروت، لبنان، دار صادر.

3- رزاق محمود الحكيم، (2003م)، المرجعية الأدبية وتجليات القراءة في النص الشعري، مجلة العلوم والآداب الإنسانية، جامعة العلوم الإسلامية الأمير عبد القادر قسنطينة، الجزائر، المجلد 02، العدد 01 ص 117- 125.

4- مجمع اللغة العربية، 2004م، المعجم الوسيط، ط4، القاهرة، مصر، مكتبة الشرق الدولية.

5- عثمان موافي، 1983م، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، ط2، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية، الجزء 01.

6- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، 2008م، القاموس المحيط، القاهرة، مصر، دار الحديث.

7- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، 1998م، معجم أساس البلاغة، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الجزء 01.

8- فاطمة سعيد أحمد حمدان، 1979م، مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في النقد والبلاغة، السعودية، جامعة أم القرى.

9- محمد الشببة، 2014م، مفهوم الخيال عند محمد أركون، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الضفاف.

10- واسيني الأعرج، 2014م، قاب قوسين أو أدنى، جمع وتقديم سهام شرّاد، ط1، العاصمة، الجزائر، دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع.

11- قناة الجزيرة، 01، 06، 2015م، وحي القلم - واسيني الأعرج.. المرتحل عبر الأمكنة، تاريخ التصفح: 01، 09، 2024م، على الساعة: 10.00 صباحا، على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=uJqAKf1RYP0&t=642s>